

## التقديم

إذا كانت الكتابات المدرجة ضمن ما يسمى اصطلاحيا بالإثنوغرافية الكولونيلية تحظى بميزة واحدة ، فهي تلك التي تختصر في فضل الحفاظ على وثائق ذات قيمة تاريخية وثقافية هامة. ونحن نعلم بما توحى إليه واقعي التحاليل التي قام بها العديد من مسجلي الأحداث وموظفي الحاكم العام ، والضباط المكلفين بشؤون الأهالي وغيرهم من المبشرين والبحاث الأوروبيين، الذين عمدوا منذ مطلع القرن 19 إلى دفع دوليب الطاحونة الإيديولوجية الاستعمارية. فالروايات المطبوعة بسمة المجلوب الدخيل – باستثناء ربما الأعمال الفنية الثويرية للويس برتران Louis Bertrand- تظهر بعد مضي الزمن كمخطوطات باهتة تشابه غيرها من الأعمال الأثنوغرافية الرامية إلى بسط الكفالة العلمية على الفعل السياسي المتمثل في الهيمنة والسيطرة. فالهدف بات واضحا: « الدراسة من أجل تعميق المعرفة، المعرفة من أجل إتقان الهيمنة ». فالحضارة بمفهوم التسلط باشرت رسالتها المعلنة والمتمثلة في تحضير الشعوب المنتمية إلى صف الثقافات الدنيا ، فالسيف حينها لا يكفي ما دامت مهمته تنحصر فقط في قهر الشعوب المستضعفة والمغلوبة على أمرها، فلا بد إذن من حضور القلم كعامل مساعد. إذ أن المرحلة البدئية للمستعمر يقوم بها الجندي ، وتستكمل المرحلة الثانية بحبر "المثقف".

وهكذا، فعلى خطوات الجيش العسكري الإفريقي تتموقع شريحة من العلماء المدنيين الخاضعين في الغالب لوصاية أو كفالة، خاضوا في دراسات ميدانية لأغلب العلوم الاجتماعية المعروفة يومها ك: دراسات لما قبل التاريخ - التاريخ - علم اللهجات - علم الأعراق - الإسلاميات ... إلخ. هؤلاء قدموا لنا ومن غير قصد خدمة لا تقدر تتمثل في الحفاظ على كنوز ثقافية كان من الممكن أن تتلاشى وإلى الأبد. فالعسكريون بمعية المكاتب العربية خصوصا لا يشكلون استثناءً، فهانوطو يعد بالتحديد من بين هؤلاء الضباط الذين أجهدوا أنفسهم في تصوير ودراسة الواقع السوسولوجي لتلك الفترة ، والذي بلغنا اليوم على شكل وثيقة تاريخية وثقافية ثمينة. فبعد خضوع منطقة القبائل توغل الضابط في عمق القرى واستطاع نقل مئات القصائد التي ظل التقليد الشفوي يضمن لها الاستمرار عبر القرون، حيث كان الشعراء المعروفين منهم والمجهولين يبدعونها بشكل تلقائي بعد كل حدث. فالضابط الإثنوغرافي بهذا الفعل قد قام بدور الساقى والمسقي في آن واحد، بحيث أراد رسم صورة لمجتمع مهزوم خاضع لفرنسا كباقي مناطق الجزائر، ولكنه من جهة أخرى ساهم في بعث العديد من النصوص بلغة محلية تحمل في طياتها شهادة حية على مقاومة شعبية شرسة وجموحة، إذ أن رسالة تلك الأشعار تلخصها المقولة القبائلية المشهورة القائلة: "قد نكسر ، أبدا لن ننحني". والدليل يأتي بعد أربع سنوات

من ظهور كتاب هانوطو ، حيث شهدت المنطقة انفجار ثورة 1871 ، والتي نعرف جميعا شدة وقعها . وبزيارته لإغيل إمولا ، لم يكن الضابط يعلم أن المنطقة ستصبح يوما موضعا لنسخ بيان أول نوفمبر الذي دق فيه نقوس التلاشي لنظام قد ساهم في توطيده. والشيء الذي كان يجهله هو أن تلك الأشعار التي جمعها كان باطنها يتأجج نارا ضارية، والحريق قد شب في القلوب منذ لحظة النزول في سيدي فرج، وحين بلغت جيوش بيجو Bugeaud باجتياحها منطقة القبائل قوبل الفعل بالتمرد والعصيان. فالمادة الشعرية في مجملها تظهر بجلاء تلك الإرادة الجامحة والرامية إلى كسر كل القيود للعيش تحت جناح الحرية، كما تقدم صورة واضحة عن تلك التراكيب الاجتماعية والبنى الذهنية العتيقة، بإظهار الارتباط الوثيق بكل ما هو مقدس وبجميل العادات التي لم تتمكن حتى العصرية من دحرها، فهذه الأشعار تمثل اليوم وثائق في غاية من الأهمية كونها تساعدنا على فهم لحظات الاتصال بالماضي التاريخي، وتمكننا من الوقوف عن قرب عند الضوابط والقوانين العرفية للأسلاف. فالنظرة النقدية لهانوطو؟ وتحاليله تثير التهكم والسخرية، كما أن مراجعه الإسنادية وأحكامه المسبقة تبدو جوفاء خاوية . ولكن رغم ذلك يخامرنا إزاءه الشكر حين أنقذ بفعله أقوال الأجداد ورسما حرفا بشكل أبدي .

ونقدم عرفاننا بشكل أخص لـ محمد جلاوي الذي تولى بالبحث والفحص مرجع هانوطو وتمكن من فضح أفكاره وآرائه ، إضافة إلى إنجازه لترجمة دقيقة وكاملة لتلك الأشعار، مما ييسر الفهم على المتلقي المعرب الذي يتعذر عليه بلوغ عمق النصوص الأمازيغية في صورتها الأصلية أو حتى المترجمة منها بالفرنسية.

هذا إذن في النهاية الديوان الجامع للأشعار القبائلية القديمة - ما دام بوليفنا نفسه قد قدم فيما مضى نقدا حوله - يضم قصائد متنوعة تعود إلى حقبة زمنية مختلفة ، مقدم خصوصا للباحثين ، والأساتذة ، والطلبة ، وللجمهور العريض من القراء ، على شكل مرجع مفيد وممتع في آن واحد.

**الدكتور يوسف نسيب**

## المقدمة

قرن وثلاثون سنة مضت عن صدور كتاب الجنرال هانوطو: "أشعار شعبية من قبائل جرجرة"<sup>(1)</sup>، وهانحن اليوم نلتفت إليه بهذه القراءة النقدية المتواضعة عسانا نكشف من خلالها عما يحتويه من مكامن القوة أو الضعف سواءً من حيث أبعاده السياسية والإستراتيجية، أو من حيث قيمته الفنية والأدبية .

ففي البدء نشير أن منطلق هذا المسعى غذته رغبتنا في بعث ما تضمنه هذا المُولِّف من كم شعري هائل وجعله بين أيدي القراء والدارسين قصد استغلاله كل حسب تخصصه العلمي. ولتبسيط فهم وقراءة هذه النصوص وتيسير تداولها عمدنا إلى إعادة كتابتها بمقاييس اللغة الأمازيغية المعاصرة باستخدام أحدث نظم النسخ والكتابة التي توصل إليها علماء اللسانيات المتخصصون في هذا الميدان ، ولتعميم الفائدة أيضا قدمنا ترجمة كاملة لما احتواه هذا المرجع من أشعار، وحرصنا قدر الإمكان على أن تكون الترجمة في مستوى الوفاء للنض الفني لتلك النصوص سواءً من حيث غور المعاني والأفكار أو من حيث جمال الشكل والبناء.

ومن جهة أخرى أعدنا قراءة الشروح والتوضيحات والتعليق التي أوردتها هانوطو وانتقدنا البعض منها، مع تقديم قراءة مغايرة لها نظرا لما لاحظنا فيها من مغالاة مقصودة تتماشى وخطيته الإستراتيجية العسكرية ، ويمليها عليه إحساسه بالانتماء العرقي المميز ، إذ راح يسقط الطابع الحضاري الغربي على مكونات المجتمع الجزائري رغم الاختلاف البين بين البيئتين ثقافيا وعقائديا وتنظيما ، مما أوقعه في إصدار أحكام لا تمت إلى الحقيقة بأية صلة ، بحيث أغفل في كثير من الأحيان الخلفية الثقافية والمرجعية المعرفية التي ينطلق منها الشعراء في عملية الخلق الشعري ، والتي تشكل بالنسبة إليهم المنهل الأساسي لكل احساساتهم الإبداعية وما ينجر عنها من صور وأخيلة ورؤى.

---

(1) POÉSIES POPULAIRES DE LA KABYLIE DU JURJURA, texte kabyle et traduction, par A. Hanoteau, imprimé par ordre de l'empereur à l'imprimerie impériale, Paris, 1867.

وفيما يتعلق بالمادة الشعريّة التي تضمنها هذا المرجع فقد أوردتها هانوطو موزعة على ثلاثة فصول ، غير أننا لاحظنا أنه لم يصنفها بكيفية دقيقة ، ولم يعنونها بشكل واضح ، مما دفعنا إلى تصنيفها وإعطاء لكل جزء عنوانا يناسبه بما يمليه مضمون الأشعار التي يحتوي عليها : فالفصل الأول يشتمل على أشعار سياسية وتاريخية ، بحيث تبرز النصوص المدرجة ضمن هذا الجزء جوانب المقاومة الشعبيّة المسلحة في منطقة القبائل ، وما تعرض لها السكان من ويلات ومحن في مجابهة الغزو الاستعماريّ الشرس ، لاسيما وقائع عام 1847 وأحداث سنة 1856، إذ تولى الشعراء وصف المعارك ونقل كل أشكال المجابهة في كثير من الحسرة والألم ، إضافة إلى كشف دقيق عن استياء الأهالي وتبرمهم من مستحدثات الإدارة الفرنسيّة التي قضت على النظم القديمة المتوارثة عبر الأجيال وفرضت أنظمتها وقوانينها عنوة وإكراه .

وعنوننا الفصل الثاني بشعر النزاعات القبليّة ، إذ تنقل أشعار هذا الجزء الحقيقة السوسولوجية لذلك المجتمع التقليدي ، فمن المعروف أن المجتمع القبائلي القديم مميز بتركيبه سوسولوجية خاصة ، بحيث كان خاضعا في مجمله لنظام قبلي قائم على العرف ، تتقاسمه مجموعة من الكونفدراليات المتحدة حيناً والمتنافرة أحيانا أخرى، وتنضوي ضمن الكونفدرالية الواحدة مجموعات من القبائل التي تختلف قوة وضعفا ، يسيرها عامل الصراع والنزاع حفاظا على ملكيتها أو دفاعا على عزتها وشرفها ، وهنا يظهر مبدأ "الانصهار ولانشطار - fission x fusion" الذي ضمنه الباحث "أ. غلنر E. Gellner" في نظريته التقطيعية في دراسة المجتمع الأمازيغي القديم<sup>(1)</sup>، إذ يرى أن حركية هذا المجتمع التقليدي يغذيها عامل الصراع والنزاع، ويصف مفعول هذا العامل وفعاليته بسرد القول السائر والمستخلص من مثل هذه الأنظمة القبليّة المتنازعة: "أنا ضد أخي، أخي وأنا ضد الأعمام، الأخوة والأعمام وأنا في مواجهة العالم". لذا فالمادة الشعريّة التي احتوى عليها هذا الجزء تناولت بشكل أساسي النزاع القبلي والصراع العروشي إلي جانب بعض الأغراض الشعريّة المعروفة في تلك الفترة خاصة المدح والهجاء والحكمة ... .

---

(1) E . Gellner, *Saints of the Atlas*, London, 1969.

أما الفصل الثالث فقد عنوانه **بالشعر الاجتماعي والعاطفي** بحيث أن الفضاءات الشعريّة لهذا الجزء استغرقت العالم النسوي بكامل ما يتصل به من عواطف واحساسات ، وأحلام وتطلعات ، وما يكتنفه من غبن وأحزان إلى جانب ما يبديه محتوى القصائد من دور للمرأة ومكانتها ضمن حركية هذا المجتمع التقليدي .

كانت رغبتنا أن نقدم المادة الشعريّة التي احتواها هذا المؤلّف كاملة غير منقوصة، إلا أن غياب الروح الشعري في بعض القصائد من الجزء الثالث، وسقوطها في الحسية المطلقة، وبلوغها أحيانا حد التصريح الجنسي المخل بالأخلاق، اضطرنا إلى حذف خمس منها<sup>(1)</sup> مراعاة للذوق العام للمتلقّي . وكنا على إدراك أيضا أن اختيار مثل هذه النصوص من طرف هانوطو كان عن وعي وقصد لاستكمال مشروعه الإزدرائي لمثل هذه الشعوب المستهدفة ، بتشويه نقاوة الطبع فيها وطعن في نسيج عفتها وكرامتها.

ويقع في المقام الثاني من مسعانا من هذه القراءة النقدية هدفنا المتمثل في فضح المقاصد السياسية والإستراتيجية للجنرال هانوطو، هذا الذي أراد من خلال كتابه دراسة تلك الشعوب انطلاقا مما تملك من إبداعات ذهنية ، تشكل في نظره المنفذ الأسلم للوقوف على مكامن القوة والضعف فيها ، مما يسهل على الزحف الاستعماري عملية التغلغل في أوساطها وتأسيس آليات التحكم في دواليبها، وبسط سنان الانقياد وراء ما تُسَطَّر من أهدافٍ عسكرية مسبقة. كما لم يفتنا ضمن هذه الخطية أن نرد على التهجمات الإزدرائية التي ما فتئ هانوطو يدلي بها كلما سنحت الفرصة لذلك، مستغلا مقاييس التفاوت الحضاري القائم بين المجتمع الجزائري المُستعمر والمجتمع الفرنسي المُستعمر.

(1) النصوص التي تم حذفها هي :

- 1 - A sidi Rebbi (أغنية Chanson) ص 377 . 380
- 2 - Ay aqcic aras ( مقاطع للرقص Couplets de danse ) ص 387 . 396 .
- 3 - A bab l-lefđel (أغنية Chanson) ص 421 . 427 .
- 4 - Tin yuγen aḥawi (أغنية Chanson) ص 428 . 430 .
- 5 - Ufiγ-đ deg seṭṭur (أغنية Chanson) ص 431 . 434 .

## فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
01	*/ المقدمة :
04	*/ من مزايا هذا المرجع .....
07	*/ من مواقف هانوطو وآرائه .....
08	أولا : هانوطو والمرأة القبائلية .....
12	ثانيا : هانوطو وقادة المقاومة الشعبية .....
12	1 - آراؤه ومواقفه من شخصية بوبغلة .....
14	2 - آراؤه ومواقفه من شخصية سي الجودي .....
15	3 - آراؤه ومواقفه من شخصية لاله فاطمة انسومر .....
42-17	*/ ردود وانتقادات :
43	الفصل الأول : " شعر المقاومة "
45	1 - الإستيلاء على الجزائر .....
50	2 - حملة المارشال بيجو .....
55	3 - حملة اللواء بليسيي .....
58	4 - عشنا المظالم .....
61	5 - الجزائر كانت آمنة .....
63	6 - بوبغلة .....
66	7 - تمرد إعمارون عام 1856 .....
68	8 - تمرد إعمارون عام 1856 .....
70	8 - معركة سوق واضية عام 1856 .....
72	9 - هجوم دراع الميزان عام 1856 .....
77	10 - معارك 30 سبتمبر و04 أكتوبر 1856 .....
80	11 - إذعان آث پرائن عام 1857 .....
83	12 - إذعان آث پرائن عام 1857 .....
86	13 - خضوع عام لمنطقة القبائل عام 1857 .....
90	14 - وفاة القايد التركي .....
92	15 - رثاء دحمان أومصّال .....
120 - 95	*/ شروح وتعليقات :

الصفحة	الموضوع
121	الفصل الثاني : شعر النزاعات القبلية وقصائد قي الحكمة .....
123	1 - إغيل نتسدة.....
126	2 - أيث أرييـاح.....
130	3 - إغيل حماذ.....
137	4 - ثقمونين.....
143	5 - حذار من الدساسين والكذابين.....
146	6 - حكم وأقوال مأثورة.....
150	7 - حكم وأقوال مأثورة.....
153	8 - إنتخابات القبائل عام 1862.....
156	9 - شعر النقائض.....
158	10 - القـردة.....
159	11 - مجادلة شعرية بين لاله خديجة وإقواون .....
160	12 - من مظاهر التثاقف.....
174-161	* / شروح وتعليقات : .....
175	التصل الثالث : الشَّعر الإجتماعي والعاطفي.....
177	1 - من أشكال الزواج.....
181	2 - السَّحر والسَّحور.....
184	3 - لقاء بفتاة.....
186	4 - رسالة غرام.....
187	5 - نصائح إلى الأزواج.....
188	6 - رسالة مغترب.....
190	7 - الغزل الحسي(I).....
191	8 - شعر مؤدى في الأفراح.....
194	9 - الرّايات(1).....
196	10 - الرّايات(2).....
198	11 - الرّايات(3).....
200	12 - الرّايات(4).....
202	13 - جدال بين الزوجين.....
203	14 - ذاذا علي.....
205	15 - من الشَّعر النسوي(أ).....
208	16 - من الشَّعر النسوي(ب).....
210	17 - الغزل الحسي(II).....
213	18 - من الشَّعر النسوي(ج).....
214	19 - من الشَّعر المؤدى في أوقات العمل.....
215	20 - من الشَّعر النسوي(د).....
224-217	* / شروح وتعليقات : .....
236-225	قاموس اللفظ القديم : .....